ثورة التوابين

قراءة تأريخية تحليلية عن ثورة جماعة التوابين

دكتور هاني السباعي



إصدارات مركز المقريزي للدراسات التاريخية . لندن

الطبعة الأولى - ذو الحجـة ١٤١٨ هـ. إبريل ١٩٩٨ م

بسم الله الرحمن الرحيم

ثورة التوابين

قراءة تأريخية تحليلية عن ثورة جماعة التوابين

دكتور هاني السباعي

إصدارات مركز المقريزي للدراسات التاريخية ـ لندن

الطبعة الأولى

ذو الحجة 1418 هـ ـ إبريل 1998 م


لندن
M
Al-Maqreze Center
For Historical Studies
مركز المقريزي للدراسات التاريخية

تقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعد.

جماعة التوابين (١٦ هـ - ٥٦ هـ) هي حركة قامت بعد منتصف القرن الأول الهجري بقليل وكان قادتها ومعظم أعضائها من العباد والزهاد وأهل الصلاح والتقوى الذين كانوا يشايعون آل البيت، ونود أن ننبه قبل أن نشرع في هذه الدراسة أن نشير إلى أنه لا يكاد يخلو كتاب من كتب التاريخ الإسلامي إلا ويذكر أنهم جماعة من الشيعة سموا أنفسهم بالتوابين لشعورهم بالندم والتقصير في نصرة آل البيت كما سنذكر إن شاء الله. لكن ننبه على أن المقصود بالشيعة في هذه الفترة؛ هم الذين كانوا يناصرون ويشايعون علي بن أبي طالب وآل البيت رضي الله عنهم حيث لم يكن قد ظهر مصطلح التشيع والشيعة بالمعنى الانحرافي الموجود حاليا فأمير هذه الجماعة صحابي اسمه سليمان بن صُرَد رضي الله عنه، وكان من شيعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وآل بيته. فالتوابون ليس لهم صلة بشيعة هذا الزمان، لقد تطور لفظ ((الشيعة)) من معنى لغوي عام إلى معنى انحرافي عقدي خاص، وذلك على مدار فترات زمنية لاحقة على مقتل قادة ومعظم جيش التوابين وانتهاء حركتهم في عين الواردة ٥٦ هـ.

وستكون دراستنا لهذه الجماعة من خلال إلقاء الضوء على النقاط التالية:

أولاً: متى وكيف ظهرت جماعة التوابين.

ثانياً: أبرز دعاتهم.

ثالثاً: منهج وأهداف هذه الحركة.

رابعاً: قتالهم لجند الشام.

خامساً: أسباب الفشل.

سادساً:أقوال أهل العلم فيهم.

سابعاً: صفوة القول.

أولاً: متى وكيف ظهرت جماعة التوابين

لقد ثبت تاريخياً أن الحسين رضي الله عنه تسلم من أهل الكوفة مائة وخمسين كتاباً من جماعات قد بايعته وحضته على الخروج على يزيد بن معاوية بن أبي سفيان. ولكن قدر الله نفذ وخذل الشيعة الحسين رضي الله عنه. ويذكر لنا ابن جرير الطبري كيف ومتى قاموا، يقول: «لما قتل الحسين بن علي رضي الله عنه، ورجع ابن زياد من معسكره بالنُخَيلَة، ودخل الكوفة، تلاقت الشيعة بالتلاوم والتندم،

ورأت أنها قد أخطأت خطأ كبيراً، بدعائهم الحسين إلى النصرة وتركهم إجابته، ومقتله إلى جنبهم ولم ينصروه، ورأوا أنه لا يغسل عارهم والإثم عنهم في مقتله إلا بقتل من قتله أو القتل فيه»[١]

هكذا نجد أن حركة التوابين ظهرت بعد منتصف القرن الأول الهجري بقليل، وبمعنى أدق (من ٦١ هـ إلى ٦٥ هـ) وكانت بداية تكوين هذه الجماعة مدينة الكوفة، ثم انضم إليهم خلق كثير من البصرة وخرسان والمدائن. وسميت بهذا الاسم (التوابين) لشعورهم بالندم والتهاون في نصرة الحسين بن علي رضي الله عنه بعد أن أرسلوا إليه كتباً يطالبونه بالخروج ووعدوه النصرة، ولما خرج الحسين رضي الله عنه في كربلاء ٦١ هـ خذلوه ولم يخرجوا للقتال، فقتل الحسين رضي الله عنه. لذلك قالوا لأنفسهم: لن يقبل الله توبتكم إلا بقتل قَتلة الحسين، وتنصيب خليفة من آل البيت، ومن ثم لن يتحقق هدفهم إلا بتكوين جماعة وتعيين أمير لهم حتى تكون لهم شوكة وقدرة على قتال عدوهم.

[١] تاريخ الطبري ٥/٥٢٢ – دار المعارف – القاهرة

الأطوار التي مرت بها جماعة التوابين

الطور الأول ـ الدعوة السرية:

وبدأت هذه المرحلة عقب مقتل الحسين رضي الله عنه في كربلاء ٦١ هـ. وكان قادة التوابين يتنقلون من بيت إلى بيت، وفي تكتم شديد يحرضون الناس على الانضمام إليهم للثأر بدم الحسين رضي الله عنه. وكانت هذه المرحلة للإعداد وأخذ العهود والمواثيق.

الطور الثاني ـ الجهر بالدعوة والخروج للقتال:

وتبدأ هذه المرحلة من منتصف عام ٦٤ هـ إلى أن خرجوا لقتال جند الشام في ربيع الآخر ٦٥ هـ.

ثانياً: أبرز دعاة جماعة التوابين

يقول الطبري عن اجتماعهم الأول: «ففزعوا (يقصد التوابين) بالكوفة إلى خمسة نفر من رؤوس الشيعة إلى سليمان بن صُرَد الخزاعي، وكانت له صحبة مع النبي صلى الله عليه وسلم وإلى المسيّب بن نجبة

الفزاري، وكان من أصحاب علي (بن أبي طالب) وخيارهم، وإلى عبد الله بن سعد بن نفيل الأزدي، وإلى عبد الله بن وال، وإلى رفاعة بن شداد البجلي. ثم إن هؤلاء الخمسة اجتمعوا في منزل سليمان بن صرد، وكانوا من خيار أصحاب علي، ومعهم أناس من الشيعة وخيارهم ووجوههم»[١]

وكان القادة الخمسة سادة وأشراف أهل الكوفة، وكانت أعمارهم تتراوح ما بين الستين والسبعين عاماً، وكان عمر أميرهم سليمان بن صُرَد رضي الله عنه يومئذ ٩٣ عاماً.

ثالثاً: منهج التوابين

يتضح منهج التوابين وهدفهم من خلال بعض خطبهم ورسائلهم، نختار منها رسالة أميرهم سليمان بن صُرَد إلى سعد بن حذيفة بن اليمان: «بسم الله الرحمن الرحيم من سليمان بن صُرَد إِلى سعد بن حذيفة ومن قِبلَه من المؤمنين. سلام عليكم، أمَّا بعد؛ فإن الدنيا دارٌ قد أدبر منها ما كان معروفاً، وأقبل منها ما كان منكراً، وأصبحت قد تشنّأتْ إِلى ذوي الألباب، وأزمع بالترحال منها عباد الله الأخيار، وباعوا قليلا من الدنيا لا يبقى بجزيل

[١] تاريخ الطبري ٥٥٢/٥

مثوبة عند الله. إنّ أولياءَ من إخوانكم، وشيعة آل نبيكم نظروا لأنفسهم فيما ابتلوا به من أمر ابن بنت نبيهم الذي دُعي فأجاب، ودعا فلم يُجب، وأراد الرجعة فحُبس، وسأل الأمان فمنع، وترك الناس فلم يتركوه، وعادوا عليه فقتلوه، ثم سلبوه وجردوه ظلماً وعدواناً غراً بالله وجهلا، وبعين الله ما يعملون، وإلى الله ما يرجعون، «وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ».

فلما نظر إخوانكم وتدبروا عواقب ما استقبلوا رأوا أنْ قد خطئوا بخذلان الزكي الطيب، وإسلامه وترك مواساته، والنصر له خطأً كبيراً ليس لهم منه مخرج ولا توبة، دون قتل قاتليه، أو قتلهم، حتى تفنى على ذلك أرواحهم، فقد جدّ إخوانكم فجدوا، وأعدوا واستعدوا، وقد ضربنا لإخواننا أجلا يوافوننا إليه، وموطناً يلقوننا فيه، فأما الأجل فغرة شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين، وأما الموطن الذي يلقوننا فيه فالنُخَيلَة. أنتم الذين لم تزالوا لنا شيعة وإخوانا، وإلا وقد رأينا أن ندعوكم إلى هذا الأمر الذي أراد الله به إخوانكم فيما يزعمون، ويظهرون لنا أنهم يتوبون، وإنكم جُدراء بتطلاب الفضل، والتماس الأجر، والتوبة إلى ربكم من الذنب، ولو كان في ذلك حزّ الرقاب، وقتل الأولاد، واستيفاء الأموال، وهلاك العشائر، ما ضرَّ أهل عذراء الذين قاتلوا ألا يكونوا اليوم أحياء عند ربهم يرزقون، شهداء قد لقوا الله صابرين محتسبين، فأثابهم ثواب الصابرين (..) وما ضرّ إخوانكم المقتَّلين صبراً، المُصلَّبين ظلماً، والممثَّل بهم،

المعتدى عليهم، أَلا يكونوا أحياء مبتلين بخطاياكم قد خُير لهم فلقوا ربهم، ووفاهم الله إِن شاء الله أجرهم، فاصبروا رحمكم الله على البأساء والضراء وحين البأس، وتوبوا الى الله عن قريب، فو الله انكم لأحرياء ألا يكون أحد من إخوانكم صبر على شيء من البلاء، إرادة ثوابه إلا صبرتم التماس الأجر فيه على مثله، ولا يطلب رضاء الله، طالبٌ بشيء من الأشياء ولو أنه القتل إلا طلبتم رضا الله به. إن التقوى أفضل الزاد في الدنيا، وما سوى ذلك يبور ويفنى، فلتعزف عنها أنفسُكم ولتكن رغبتكم في دار عافيتكم، وجهاد عدو الله وعدوكم، وعدو أهل بيت نبيكم حتى تقدموا على الله تائبين راغبين، أحيانا الله وأحياكم حياة طيبة، وأجارنا وإياكم من النار، وجعل منايانا قتلاً في سبيله على يديْ أبغض خلقه إليه وأشدهم عداوة له؛ إنه القدير على ما يشاء، والصانع لأوليائه في الأشياء. والسلام عليكم»[1].

وفي خطبته إلى جموع التوابين يقول ابن صُرَد: «إنا كنا نمد أعناقنا إلى قدوم آل نبينا، ونمنّيهم النصر، ونحثّهم على القدوم، فلما قدموا ونَيْنا وعجزنا، وادّهنا، وتربصنا، وانتظرنا ما يكون حتى قُتل فينا ولَدُ نبيّنا وسلالتُه وعُصارتُه وبَضعةٌ من لحمه ودمه، إذ جعل

[1] تاريخ الطبري ٥/٥٥٥

يستصرخ فلا يُصرَخ، ويسأل النّصف فلا يُعطاه، اتخذه الفاسقون غرضاً للنبل، ودرّية للرماح حتى أقصدوه، وعدَوْا عليه فسلبوه. ألاّ انهضوا فقد سخط ربُّكم، ولا ترجعوا إلى الحلائل والأبناء حتى يرضى الله، والله ما أظنه راضياً دون أن تناجزوا مَن قتله، أو تُبيروا. ألا تهابوا الموت فوالله ما هابه امرؤ قطّ إلا ذلّ»[١]

نستخلص من كلام ابن صُرَد رضي الله عنه النقاط التالية:

١- نلاحظ أنه لم يكن لدى التوابين أي منهج أو حتى برنامج بالمعنى الدقيق لهذين التعبيرين بالمعنى الاصطلاحي الحديث. فهي جماعة شعرت بالتقصير والندم وترغب في التوبة الخالصة، ولن يكون ذلك إلا بقتل قتلة آل البيت أو القتل في ذلك.

٢- نلاحظ أن كلام أمير التوابين يعتمد على جلد الذات التي فرطت في نصرة نجدة الحسين رضي الله عنه، وأن الباعث على تكوين هذه الجماعة هو الثأر لدم الحسين رضي الهه عنه، بل هو سبب قيامهم وخروجهم على السلطة الحاكمة، كما أن هناك هدفا آخر لخروجهم هو إعادة الإعتبار لآل البيت وأحقيتهم بالخلافة دون غيرهم.

[١] تاريخ الطبري ٥٥٤/٥

٣- لم يكن في خطة التوابين تكتيكات عسكرية أو مناورات أو مناوشات بالمفهوم العسكري، ولا حتى مفهوم الكر والفر، فخروجهم من أجل أن يقتلوا قتلة الحسين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أو يقتلوا حتى يتوب الله عليهم ويرضى عنهم. أما في حالة النصر فإنهم يريدون تنصيب خليفة من آل البيت والذي يؤكد ذلك اطلاعنا على رسائل أخرى ذكرها الإخباريون عنهم.

٤- اعترافهم بمكاتبة الحسين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وحضه على القدوم لهم ليبايعوه وينصروه. واقرارهم بخذلان آل البيت.

٥- تحديد زمن الخروج بغرة ربيع الآخر ٦٥ هـ. وتعيين المكان بالنُخَيلَة. وقد تم تغيير هذا المكان فيما بعد إلى ((عين الوردة)) بعد نصيحة والي قرقيسيا لهم لأهمية هذا الموقع من الناحية العسكرية.

رابعا: خروج التوابيين ومسيرهم لقتال جند الشام

«لما أراد سليمان بن صرد الخزاعي الشخوص سنة خمس وستين بعث إلى رؤوس أصحابه فأتوه، فلما أهل ربيع الآخر

خرج في وجوه أصحابه، وكانوا قد أتوا للخروج تلك الليلة، فلما أتى النُخيلة دار في الناس فلم يعجبه عددهم، فأرسل حكيم بن منقذ الكندي والوليد بن عصير الكنانيّ، فناديا في الكوفة: يا لثارات الحسين! فكانا أول خلق الله دعوا: يا لثارات الحسين»[١] «فأصبح من الغد وقد أتاه نحو ممّا في عسكره، ثم نظر في ديوانه فوجدهم ستة عشر ألفاً، فقيل له: إن المختار يثبط الناس عنك، إنه قد تبعه ألفان. فقال: قد بقي عشرة آلاف، أما هؤلاء بمؤمنين؟ أما يذكرون الله والعهود والمواثيق؟ فأقام بالنخيلة ثلاثاً يبعث إلى من تخلف عنه، فخرج إليه نحو من ألف رجل. فقام إليه المسيب بن نَجَبة فقال: رحمك الله! إنه لا ينفعك الكاره ولا يقاتل معك إلاّ من أخرجتْه النية، فلا تنتظر أحداً وجدّ في أمرك. فقال: نعم»[٢]

أقول: يتضح لنا مما سبق:

الأول: أن أول ضعف دبّ في صفوف التوابين هو تخلف معظم الجيش، فلم يأت إلا أربعة آلاف رجل من ستة عشر ألفاً. مما أثر في معنويات بعض المبايعين وكادوا أن ينصرفوا عن ابن صرد وأصحابه لولا تذكيره لهم بالعهود والمواثيق، ورغم ذلك لم يأت إلا عدد قليل في مقابل جيش ابن زياد الكثيف المنظم.

---

[١] الكامل في التاريخ لابن الأثير ٤/١٧٥-١٧٦.

[٢] السابق

الثاني: قدوم المختار بن أبي عبيد الثقفي الكذاب الذي طفق يثبط الناس عن جيش التوابين، ويزعم أنه مكلف من قبل محمد ابن الحنفية رضي الله عنه، مما ساعد على صرف الناس عن ابن صُرد، باعتبار المختار مكلّف من قبل أهل البيت. فكان صنيع المختار أول انشقاق في صفوف التوابين. مما أضعف قوتهم وثبط عزيمة عدد غفير منهم.

الثالث: نلاحظ مدى تأثر الأمير سليمان بن صُرَد بتخلف معظم أصحابه وهو يقول: ((أما هؤلاء بمؤمنين)) ((أما يذكرون الله والعهود والمواثيق؟)). والذي يعضد وجهة نظرنا أنه ظل بالنُخيلة ثلاث ليال يبعث إلى من تخلف عنه. حتى أشفق لحاله المسيبُ بن نخبة: ((إنه لا ينفعك الكاره ولا يقاتل معك إلاّ من أخرجتْه النية)).

الرابع: قد يكون سبب تخلف أغلب جيش التوابين رغم بيعتهم لابن صرد في الخروج مع شعورهم بضعف جيش التوابين من الناحية التنظيمية بالمقارنة بجيش الشام رغم تقوى وصلاح التوابين. وقد يكون لحماس زائد وحرارة الإيمان اللحظية عقب مقتل الحسين رضي الله عنه، ثم لما حان الموعد بعد أربع سنوات من مقتل الحسين رضي الله عنه هبط مؤشر الحماس، ونزل منحنى الثأر لدم الحسين رضي الله عنه فآثر هؤلاء الذين تخلفوا السلامة والبقاء في بلادهم وديارهم. ومما لا شك فيه أن وجود المختار الثقفي كان له أثر كبير في تخلف هؤلاء المبايعين للتوابين.

نصائح بعض الولاة والمقربين للتوابين بالتريث وعدم الخروج

نصيحة والي ابن الزبير رضي الله عنه، على الكوفة عبد الله بن يزيد الأنصاري:

«وبلغ عبد الله بن يزيد، وإبراهيم بن محمد بن طلحة خروج ابن صُرد، فأتياه في أشراف أهل الكوفة (..) فلما أتياه. قال عبد الله بن يزيد: إنّ المسلم أخو المسلم لا يخونه ولا يغشّه، وأنتم إخواننا وأهل بلدنا وأحبّ أهل مصر خلقه الله إلينا، فلا تفجعونا بأنفسكم، ولا تنقصوا عددنا بخروجكم من جماعتنا، أقيموا معنا حتى نتهيأ، فإذا سارعدونا إلينا خرجنا إليه بجماعتنا فقاتلناه.(..) وقال إبراهيم بن محمد مثله»[١]

بل إن عبد الله بن يزيد قال له: سنجعل لكم خراج (جوخى) إن أقاموا حتى يعدوا العدة لقتال عدوهم.. فأجابهم ابن صرد رضي الله عنه: «قد محضتما النصيحة واجتهدتما في المشورة، فنحن بالله وله، ونسأل الله العزيمة على الرشد ولا نرانا إلا سائرين»[٢]

فألحّ عليهم والي الكوفة أيضاً لعلمه بضعفهم: «فقال عبد الله:

[١] الكامل في التاريخ ١٧٧/٤.
[٢] السابق.

فأقيموا حتى نعبّي معكم جريدا كثيفا (جمع كثيف) فتلقوا عدوّكم بجمع كثيف. وكان قد بلغهم إقبال عبيد الله بن زياد من الشام في جنود. فلم يقم سليمان، فسار عشيّة الجمعة لخمس مضين من ربيع الآخر سنة خمس وستين، فوصل دار الأهواز وقد تخلف عنه ناس كثير، فقال: ما أحبّ أن من تخلف عنكم معكم، لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا، إن الله كره انبعاثهم فثبطهم، واختصكم بفضل ذلك»[1].

أقول: نلاحظ أن تخلف الناس مستمر وفي اطراد. ورغم ذلك ساروا حتى مروا بقبر الحسين رضي الله عنه وبكوا وترحموا عليه. ثم ساروا إلى الأنبار. وفي الأنبار وصلتهم رسالة من والي الكوفة.

نص رسالة عبيد الله بن يزيد إلى جيش التوابين

«بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله بن يزيد إلى سليمان بن صرد ومن معه من المسلمين، سلام عليكم، أما بعد؛ فإنّ كتابي إليكم كتاب ناصح ذي إرعاء، وكم من ناصح مستغَشّ، وكم من

[1] السابق.

غاشّ مستَنصح مُحبّ، إنه بلغني أنكم تريدون المسير بالعدد اليسير إلى الجمع الكثير، وإنه مَنْ يُرد أن ينقل الجبال عن مراتبها تكلّ معاولُه، وينزع وهو مذموم العقل والفعل. يا قومنا لا تُطمعوا عدوّكم في أهل بلادكم، فإنكم خيارٌ كلكم، ومتى ما يصبكم عدوكم يعلموا أنكم أعلامُ مصركم، فيُطمعهم ذلك فيمن وراءكم. يا قومنا، «إنهم إنْ يظهروا عليكم يرجموكم أو يُعيدوكم في ملَّتهم ولن تفلحوا إذاً أبداً»، يا قومنا إن أيدينا وأيديكم اليوم واحدة، وإن عدونا وعدوكم واحد، ومتى تجتمع كلمتنا نظهر على عدونا، ومتى تختلف تهُنْ شوكتُنا على من خالفنا؛ يا قومنا لا تستغشّوا نصحي، ولا تخالفوا أمري، وأقبلوا حين يُقرأ عليكم كتابي. أقبلَ الله بكم إلى طاعته، وأدبر بكم عن معصيته. والسلام»[١]

فماذا كان جواب التوابين؟

أبوا وقام ابن صرد فيهم خطيباً: «أرى والله أنكم لم تكونوا قط أقربَ من إحدى الحسنيين منكم يومكم هذا؛ الشهادة والفتح، ولا أرى أن تنصرفوا عما جمعكم الله عليه من الحقّ، وأردتم به من الفضل»[٢]

ثم كتب ابن صُرَد رسالة إلى عبد الله بن يزيد يثني عليه و

[١] الطبري ٥/٥٩٢

[٢] السابق.

يبين له سبب رفضهم الرجوع عن مقصدهم: «بسم الله الرحمن الرحيم للأمير عبد الله بن يزيد، من سليمان بن صُرد ومن معه من المؤمنين، سلامٌ عليك، اما بعد. فقد قرأنا كتابك، وفهمنا ما نويتَ، فنعم والله الوالي، ونعم أخو العشيرة، أنت والله من نأمنه بالغيب، ونستنصحه في المشورة، ونحمده على كل حال؛ إنا سمعنا الله عز وجل يقول في كتابه: «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة» – إلى قوله: «وبشر المؤمنين». إن القوم قد استبشروا ببيعتهم التي بايعوا، إنهم قد تابوا من عظيم جرمهم، وقد توجهوا إلى الله، وتوكلوا عليه ورضوا بما قضى الله «ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير». والسلام عليك»[١]

هكذا قد بذل هذا الوالي قصارى جهده من نصح لجيش التوابين، إذ كان مشفقاً عليهم لعلمه بقلة عددهم، لذلك لما جاءه كتاب ابن صرد في عزمهم على المضي لقتال أهل الشام على حالتهم. «قال: استمات القومُ، أول خبر يأتيكم عنهم قتلُهم؛ وايم الله ليُقتلنّ كراماً مسلمين، ولا والذي هو ربهم لا يقتلهم عدوهم حتى تشتدّ شوكتهم، وتكثر القتلى فيما بينهم»[٢]

[١] الطبري ٥/٥٩٣
[٢] السابق ٥/٥٩٢

هكذا توقع والي الكوفة نتيجة المعركة، ومصير التوابين، وليس ذلك رجما بالغيب بل يرجع ذلك للمعطيات التي ذكرناها عن قوتهم العسكرية.

نصيحة عبد الله بن سعد بن نفيل

«فلما عزم سليمان على المسير قال له عبد الله بن سعد بن نفيل: إني قد رأيت رأياً إن يكن صواباً فالله الموفق، وإن يكن ليس صوابا فمن قبلي؛ إنا خرجنا نطلب بدم الحسين، وقتَلَتَه كلهم بالكوفة، منهم عمر بن سعد ورؤوس الأرباع والقبائل، فأين نذهب من ها هنا وندع الأوتار؟ فقال أصحابه كلهم: هذا هو الرأي»[١]

لكن الأمير سليمان بن صرد كان له رأي آخر: «فقال سليمان: لكن أنا لا أرى ذلك، إن الذي قتله وعبّأ الجنود إليه وقال لا أمان له (أي الحسين) عندي دون أن يستسلم فأُمضي فيه حكمي، الفاسق ابن الفاسق عبيد الله بن زياد، فسيروا على بركة الله فإن يظهركم الله عليه رجونا أن يكون مَنْ بعده أهون علينا منه، ورجونا أن يدين لكم أهلُ مصركم في عافية فينظرون إلى كل مَنْ شرك في دم الحسين فيقتلونه ولا يغشموا وإن تُستشهدوا فإنما قاتلتم المُحِلّين،

[١] الكامل ١٧٦/٤

وما عند الله خير للأبرار»[1]

إذن هناك رأيان:

الأول: يرى قتل الذين شاركوا في قتل الحسين رضي الله عنه وهم بين أيديهم في الكوفة.

الثاني: رأي الأمير وهو قتل الرأس المدير الذي لم يعط الحسين رضي الله عنه أماناً ولا عهداً ولم يعطه فرصة الرجوع إلى الحجاز. فهو أولى بالقتل على حد رأي ابن صرد رضي الله عنه. أما بقية الذين شاركوا في هذه الجريمة الشنعاء، فهم أقل وأهون.

أقول: نلاحظ أن كلا الرأيين له وجهة نظر معتبرة فالرأي الأول ينظر إلى حجم قوتهم العسكرية وعتادهم الحربي الضعيف، ومن ثم لم لا يقتلون من في أيديهم طالما ليتحقق شيء من المراد، وليكون نكالاً للآخرين الذين بالشام أو في غيرها من الأمصار، فهذا الفريق يتفق مع الرأي الثاني في التسليم بقتل من أصدر الأوامر بقتل الحسين وآل البيت رضي الله عنهم. لكنهم يرون ارجاء ذلك حتى تقوى شوكتهم.

أما الرأي الآخر فإنه ينظر إلى أن قطع رأس الأفعى أولى. وفيه ارواء الغليل وشفاء الصدور، وأن الابتداء بقتل من في الكوفة قد يثير حفيظة

[1] السابق ٤/١٧٦

أقاربهم وذوويهم، ومن ثم الإتفاق على قتل الرأس أولى في هذه المرحلة.

وإزاء هذين الرأيين المعتبرين نرى أن القضية تختلف من حالة لأخرى: ففي حالة وجود جماعة قوية لها شوكة وعمق شعبي فمن الأولى ضرب الرؤوس وقتل أئمة الضلال، وليس معنى ذلك ترك من اشتركوا في قتل الحسين رضي الله عنه أحراراً يرتعون في الأرض وينعمون بالأمان، بل نحن ننظر إلى أولوية الخيار، وخاصة أن جماعة التوابين خرجت لمواجهة جيش نظامي؛ أي حرب ميدانية مكشوفة لكنها بهذا الوصف غير متكافئة. فلو أن التوابين اختاروا منهج ارهاب الخصم أو الكر والفر على طريقة حرب العصابات أو المدن لاختلف الحديث واختلف أيضاً التنظير ونظرتنا للأمور، فحرب العصابات لها أسلوب يختلف عن الحرب النظامية. فقد يقتل الزعيم أو الحاكم أو أعلى منصب في السلطة ولا يغير ذلك من حسم المعركة بل هي أشبه بحرب استنزاف لطاقات العدو وارهابه. أما ما فعله التوابون فإنهم خرجوا لحرب مكشوفة؛ أي مواجهة عسكرية مع نظام له جيش منظم وقوي.

لذلك نرى أن وجهة نظر الفريق الأول التي ترى الاكتفاء بقتل من شارك في قتل الحسين وآل البيت رضي الله عنهم؛ هؤلاء القتلة يعيشون معهم في الكوفة. فوجهة نظرهم قوية تتفق وطبيعة جيش التوابين وحجمهم القليل. فالقيام بعمليات في مثل حالتهم وإن كانت بسيطة إلا أنها تحقق مكاسب محدودة منها:

أ ـ ردع العدو وإرهابه.

ب ـ إحياء قضية الجهاد في نفوس الأمة كي تقوى عزيمتهم.

ج ـ إعادة الثقة إلى النفس المطربة.

ففي مثل هذه العمليات واستمرارها وخاصة مع من اشتهر عنهم بارتكاب جرائم وموبقات في حق الأمة. هذه ما يتناسب وطبيعة حركة التوابين.

وننبه على عدم إغفال الإستراتيجية العامة لخطة الحركة أو الجماعة بمعنى السير في خطوط متوازية من الإستمرار في تنمية قدرات الأتباع وتعبئتهم بقدر الإمكان والإستمرار في تدريبهم والإعداد الملائم لطبيعة الصراع القائم، فالفريق الأول نظر إلى واقع الجماعة الضعيف، والفريق الثاني حركته حرارة الإيمان، ولم يراع الأسباب الكونية. فقد ينهزم جيشٌ به نبيٌ مرسلٌ لعدم أخذهم بالأسباب التي خلقها الله لمثل هذه المعارك العسكرية. كما في (غزوة أحد ٣هـ). وقد يحرز النصر أكفر خلق الله لأخذه بالأسباب التي شرعها الله لمثل هذه المعارك، كما حدث أيضاً في أُحد حيث انتصرت الوثنية – مؤقتاً – على المسلمين وهم صفوة البشرية وأتقاهم وأصلحهم ورغم ذلك هزموا، وللتدليل على صحة هذه الدعوى عشرات الأدلة من كتب التاريخ والسير، لكن نكتفي بهذا المقدار.

نصيحة والي قرقيسيا

«ثم ساروا حتى انتهوا إلى والي قرقيسيا على تعبية، وبها زُفَر بن الحارث الكلابيُّ قد تحصن بها منهم ولم يخرج إليهم»[١].. إذن لقد أغلق والي قرقيسيا أبواب المدينة لما رأى التوابين – ليس خوفا من منازلتهم – بل لكراهته قتالهم إذا أرادوا قتاله، لأنه قد علم أنهم أهل صلاح وتقوى. ومما يعضد ذلك قول ابن الأثير في الحوار الذي دار بين المسيب بن نجبة وزفر بن الحارث: «فقال زفر: إنا لم نغلق أبواب المدينة إلا لنعلم إيّانا تريدون أم غيرنا، وما بنا عجز عن الناس وما نحب قتالكم، وقد بلغنا عنكم صلاح وسيرة جميلة»[٢].. ثم أخرج لهم طعاماً، وأعطاهم خيلاً وسلاحاً، ثم نصحهم لعلمهم بأخبار الخصوم وعرض عليهم الرأي التالي: «إنه قد سار خمسة أمراء من الرَّقّة هم الحصين بن نُمير وشُرَحْبيل بن ذي الكَلاع وأدهم بن مُحْرِز وجَبَلَة بن عبد الله الخثعمي وعبيد الله بن زياد في عدد كثير مثل الشوك والشجر، فإن شئتم دخلتم مدينتنا وكانت أيدينا واحدة، فإذا جاءنا هذا العدو قاتلناهم جميعا. فقال سليمان بن

[١] السابق ١٧٩/٤
[٢] السابق

صرد : قد طلب أهل مصرنا ذلك منّا فأبينا عليهم»[١].

وفي رواية الطبري أنه عرض عليهم أيضاً: ((أتاكم عدد كثير، وحدٌ حديد، وايم الله لقلّ ما رأيتُ رجالاً هم أحسن هيئةً ولا عدةً، ولا أخلق لكلّ خير من رجال أراهم معك؛ ولكنه قد بلغني أنه قد أقبلت إليكم عدّة لا تُحصى، فقال ابن صُرَد: على الله توكلنا وعليه فليتوكل المتوكلون، ثم قال زفر: فهل لكم في أمر أعرضه عليكم؛ لعل الله أن يجعل لنا ولكم فيه خيراً؟ إن شئتم فتحنا لكم مدينتنا، فدخلتموها فكان أمرنا واحداً وأيدينا واحدة، وإن شئتم نزلتم على باب مدينتنا، وخرجنا فعسكرنا إلى جانبكم؛ فإذا جاءنا هذا العدو قاتلناهم جميعاً»[٢].

فكان جواب أمير التوابين أنه رفض أيضاً هذه العرض وقال له: لسنا فاعلين، وشكره على نصيحته.

لكن هذا الوالي كان خبيراً بالحروب، وعلى دراية بمنازلة الخصوم، وله خبرة في اختيار المواقع الإستراتيجية، فعرض عليهم خطة عسكرية عاجلة: «قال زفر: فبادروهم إلى عين الوردة وهي رأس عين فاجعلوا المدينة في ظهوركم ويكون الرستاق والماء والمادة في

[١] السابق ١٨٠/٤

[٢] الطبري ٥٩٤/٥

أيديكم وما بيننا وبينكم فأنتم آمنون منه، فاطووا المنازل، فوالله ما رأيت جماعةً قط أكرم منكم، فإني أرجو أن تسبقوهم، وإن قاتلتموهم فلا تقاتلوهم في فضاء ترامونهم وتطاعنونهم فإنّهم أكثر منكم، ولا آمن أن يحيطوا بكم، فلا تقفوا لهم فيصرعوكم، ولا تصفوا لهم، فإني لا أرى معكم رَجّالة ومعهم الرَّجّالة والفرسان بعضهم يحمي بعضاً، ولكن القوهم في الكتائب والمقانب ثم بثّوها فيما بين ميمنتهم وميسرتهم واجعلوا مع كل كتيبة أخرى جانبها، فإن حمل على إحدى الكتيبتين رحلت الأخرى فنفّست عنها، ومتى شاءت كتيبة ارتفعت، ومتى شاءت كتيبة انحطّت، ولو كنتم صفا واحدا فزحفت إليكم الرَّجالة فدفعتم عن الصفّ انتقض فكانت الهزيمة. ثم ودعهم ودعا لهم ودعوا له وأثنوا عليه.))[١]

[١] الكامل ٤/١٨٠

خلاصة خطة والي قرقيسيا

١. أن يسرع التوابون إلى منطقة عين الوردة، وهي عين بها ماء قبل عدوهم وكأنه يذكرهم بمشورة الحباب بن المنذر رضي الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبيل معركة بدر ٢هـ.

٢. ألا يقاتلوهم في أرض مكشوفة لأن جند الشام أكثر عدداً.

٣. ألا يقاتلوا عدوهم في صف واحد لعدم وجود رجالة (المشاة) الذين يحمون الفرسان.

٤. أن يقسموا أنفسهم إلى كتائب بغية تشتيت مجهود عدوهم، مع وجود كتيبة احتياطية تحارب بجانب الأخرى لحمايتها ولإعطائها الفرصة لالتقاط أنفاسها في حالة التعب.

٥. نلاحظ أن زفر بن الحارث يرسم خطته مع اعطاء تبريرات وفوائد هذه الخطة التفصيلياً، ولولا خشية الإطالة كان لنا مع هذه الخطة دراسة مستفيضة.

٦. نلاحظ أن التوابين أخذوا بهذه النصيحة وقاتلوا عدوهم عند عين الوردة كما أراد زفر بن الحارث، مما ساعدهم في النيل من عدوهم في أول المعركة.

معركة عين الوردة 65 هـ

ثم ساروا مجدين فانتهوا إلى عين الوردة، فقام أميرهم سليمان بن صُرد رضي الله عنه مبيناً لهم كيفية قتال عدوهم:

«أما بعد فقد أتاكم عدوكم الذي دأبتم إليه في السير آناء الليل والنهار، فإذا لقيتموهم فاصدقوهم القتال واصبروا إن الله مع الصابرين، ولا يولِّيَنَّهم امرؤٌ دُبُرَه إلاّ متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة، ولا تقتلوا أسيرا من أهل دعوتكم إلا أن يقاتلكم بعد أن تأسروه، فإنّ هذه كانت سيرة علي (ابن أبي طالب رضي الله عنه) في أهل هذه الدعوة»[١].

«ثم قال: إن أنا قُتلتُ فأمير النّاس مسيب بن نَجَبَة، فإن قُتل فالأمير عبد الله بن سعد بن نُفيل، فإن قتل فالأمير عبد الله بن وال، فإن قتل فالأمير رِفاعة بن شدّاد، رحم الله امرأً صدق ما عاهد عليه الله»[٢].

هكذا كانت سريةُ مؤتة ٨هـ ماثلةً أمام ابن صُرد وهو يوصي جماعته في اختيار الأمير حالة قتله.

وأقبل جند الشام في جيش عرمرم (ثلاثين ألف رجل) في مقابل تعداد

[١] السابق ٤/١٨١

[٢] السابق نفس الصفحة.

جيش التوابين أقل من أربعة آلاف رجل، والتقى الجمعان في عين الوردة وحمي وطيس المعركة غير المتكافئة، ودارت رحى المعركة فقاتل أميرهم ابن صرد حتى قتل رضي الله عنه فأخذ عنه الراية ابنُ نَجَبَة فقاتل حتى قُتل فأخذ الراية عبد الله بن سعد، فقاتل حتى قتل فأخذ الراية عبد الله بن وال فقاتل حتى قتل. ثم أخذها رفاعة بن شداد فانحاز بالناس إلى حصن قرقيسيا ومنها إلى الكوفة حتى تشتت الناس في بقاع الأرض، وأسدل الزمن ستاره على جماعة التوابين وهم مابين قتيل وجريح وطريد وأسير.

هكذا أسدل التاريخ ستاره على جماعة التوابين، الجماعة التي صرنا نتذاكرها في سجل التاريخ العريض، لكن حركتهم وللأسف الشديد منسية لم تأخذ العناية الكافية من الدراسة والتحليل والقاء الضوء، هذه الجماعة التي كان يتزعمها أشياخ وأهل صلاح؛ تقوى وشجاعة.

هكذا كانت نهاية جماعة التوابين التي لم يظهر لها أثر مادي بعد ذلك خلال الحقب التاريخية كبعض الجماعات الأخرى التي كانت لها أتباع يحيون أفكارها وكان لهم أثر لا ينكر على مسرح التاريخ الإسلامي. أما جماعة التوابين فقد قتل قادتهم وقتل معظم جيشهم في عين الوردة، ومن عاش أثخنته الجراح أو أنهكه الأسر أو خذله الأعوان. لكنهم رغم قلتهم ضربوا أروع الأمثال، وسطروا صحائف من ضياء في البطولة والجهاد في سبيل الله رحمة الله عليهم.

مواقف جهادية لبعض قادة وأعضاء جماعة التوابين

الأمير عبد الله بن وال التميمي

ذكر الطبري بسنده: «قال: قال لنا ابن وال: مَنْ أراد الحياة التي ليس بعدها موتُ، والراحة التي ليس بعدها نَصَبٌ، والسرورَ الذي ليس بعده حزنٌ، فليتقرب إلى ربه بجهاد هؤلاء المحلِّين، والرواح إلى الجنة رحمكم الله! وذلك عند العصر، فشدّ عليهم وشددنا معه، فأصبنا منهم رجالاً، وكشفناهم طويلاً، ثم إنهم بعد ذلك تعطّفوا علينا من كلّ جانب، فحازونا حتى بلغوا بنا المكان الذي كنا فيه، وكنا بمكان لا يقدرون أن يأتونا فيه إلاّ من وجه واحد، وولِيَ قتالنا عند المساء أدهم بن مُحرز الباهليّ (أحد قواد الشام)، فشدّ علينا في خيله ورجاله، فقتل عبد الله بن وال التيمي»[1].

موقف عبدالله بن عزيز الكندي

«وخرج عبد الله بن عزيز الكندي ومعه ابنه محمد غلام صغير. فقال: يا أهل الشام، هل فيكم أحدٌ من كندة؟ فخرج إليه منهم

[1] الطبري ٥/٦٠٣

رجال. فقالوا: نعم، نحن هؤلاء، فقال لهم: دونكم أخوكم فابعثوا به إلى قومكم بالكوفة، فأنا عبد الله بن عزيز الكندي، فقالوا له: أنت ابن عمّنا، فإنك آمن، فقال لهم: والله لا أرغب عن مصارع إخواني الذين كانوا للبلاد نوراً وللأرض أوتاداً، وبمثلهم كان الله يُذكَر؛ قال: فأخذ ابنه يبكي في أَثَر أبيه، فقال: يا بنيّ، لو أنّ شيئاً كان آثرَ عندي من طاعة ربي إذاً لكنتَ أنت، وأَنشدَه قومه الشاميون لما رأوا من جزع ابنه وبكائه في أثره، وأُروا الشاميون له ولابنه رِقَّة شديدة حتى جزعوا وبكوا، ثم اعتزل الجانب الذي خرج إليه منه قومه، فشدّ على صفهم عند المساء، فقاتل حتى قُتل»[1]

موقف كريب بن زيد الحميري

لما علم كريب بخطة انحياز رفاعة بن شداد استرجع وسار في مائة رجل لقتال أهل الشام، ولنترك ينقل لنا هذه الصورة بسنده: «أن كريب بن زيد الحميري مشى إليهم عند المساء ومعه راية بَلقاء في جماعة، قلما تنقص من مائة رجل إن نقصت، وقد كانوا تحدثوا بما يريد رفاعة أن يصنع إذا أمسى، فقام لهم الحميري وجمع إليه رجالاً من حمير وهَمْدَان، فقال: عباد الله! رُوحوا إلى ربّكم، والله ما في شيء من الدنيا خَلَف من رضاء الله والتوبة إليه، إنه بلغني أن طائفة منكم

[1] السابق ٥/٦٠٤

يريدون أن يرجعوا إلى ما خرجوا منه إلى دنياهم، وإن هم ركنوا إلى دنياهم رجعوا الى خطاياهم، فأما أنا فو الله لا أولّي هذا العدو ظهري حتى أرِدَ مَوارِدَ إخواني؛ فأجابوه وقالوا: رأينا مثل رأيك. ومضى برايته حتى دنا من القوم، فقال ابن ذي الكَلاع: والله إني لأرى هذه الراية حِمْيَرية أو هَمْدَانية، فدنا منهم فسألهم، فأخبروه، فقال لهم: أنتم آمنون. فقال له صاحبهم: إنا كنا آمنين في الدنيا، وإنما خرجنا نطلب أمان الآخرة؛ فقاتلوا القوم حتى قتلوا»[١].

موقف صخير بن حذيفة بن هلال بن مالك المزني

مشى في ثلاثين من قومه مُزَينة فقال: «لا تهابوا الموت في الله فإنه لاقيكم، ولا ترجعوا إلى الدنيا التي خرجتم منها إلى الله فإنها لا تبقى لكم، ولا تزهدوا فيما رغبتم من ثواب الله فإنَّ ما عند الله خيرٌ لكم؛ ثم مضوا فقاتلوا حتى قتلوا»)[٢]

موقف عبدالله بن خازم:

«وإنّ رجلاً من بني كثير من الأزد يقال له عبد الله بن خازم مع امرأته سهلة بنت عمرو من بني كثير، وكانت من أجمل الناس

[١] السابق ٥/٦٠٤

[٢] السابق

وأحبَّهم إليه، سمع الصوت: يا لثَارات الحُسين! وما هو ممن كان يأتيهم، ولا استجاب لهم. فوثب إلى ثيابه فلبسها، ودعا بسلاحه، وأمر بإسراج فرَسه، فقالت له امرأته: ويحك! أجُننت! قال: لا والله، ولكني سمعتُ داعيَ الله، فأنا طالبٌ بدم هذا الرجل حتى أموت، أو يقضيَ الله من أمري ما هو أحبّ إليه، فقالت له: إلى مَنْ تدعُ بُنيَّك هذا؟ قال: إلى الله وحده لا شريك له؛ اللهمَّ إني أستودعُك أهلي وولدى، اللهمَّ احفظني فيهم»[١].. فخرج مع التوابين وقاتل حتى قتل.

أبو عزة القابضي:

لما سمع الناس يصيحون يالثارات الحسين! «فخرج حتى أتى أهله، وأخذ سلاحه، ودعا بفرسه ليركبه، فجاءته ابنتُه (..) فقالت: يا أبتِ، ما لي أراك قد تقلدتَ سيفكَ، ولبستَ سلاحك! فقال لها: يا بُنية، إنّ أباك يفرّ من ذنبه إلى ربّه، فأخذتْ تنتحب وتبكي، وجاءه أصهارُه وبنو عمه، فودّعهم، ثم خرج، فلحق بالقوم»[٢].

[١] السابق ٥/٥٨٤
[٢] السابق ٥/٥٨٤

ملحمة التوابين بالشعر:

لقد صور لنا هذه الملحمة التاريخية أعشى هَمْدَان، وكان الناس يتداولونها سراً، وهي إحدى المكتَّمات، كُنَّ يُكَتَّمن في ذلك الزمان. نظراً لطولها؛ نختار منها بعض الأبيات وهي قصيدة رائعة باكية ذكرها الطبري بتمامها في تاريخه:

ألمَّ خيالٌ منكِ يا أمَّ غالبِ   فَحُيِّيتِ عنَّا من حبيبٍ مُجانبِ
وما زلتِ شَجْوَاً لي وما زلتُ مُقصَداً   لِهَمٍّ عَرانِي من فراقِك ناصبِ

ثم يصف لنا ما حدث للتوابين:

وما أنا فيما يُكبرُ الناسُ فقده   ويسعى له الساعونَ فيها براغبِ
فوجهَّهُ نحوَ الثَّوِيَّةِ سائراً   إلى ابن زيادٍ في الجموعِ الكباكبِ
بقوم همُ أهلُ التقيَّةِ والنُّهى   مَصَالِيتُ أنجادٌ سُراةُ مَنَاجبِ

ثم يقول مادحاً ومثنياً ومترحماً عليهم:

فيا خيرَ جيش للعراق وأهله   سقيتم روايا كلِّ أسحمَ ساكبِ
فلا يَبْعَدنْ فُرساننا وحُماتنا   إذا البيضُ أبدَت عن خدام الكواعبِ
فإنْ يُقتلوا فالقتلُ أكرمُ مِيتةٍ   وكلُّ فتىً يوماً لإحدى الشواغبِ
وما قُتلوا حتى أثاروا عصابةً   محلين ثَوراً كالليوثِ الضواربِ

[١]

[١] السابق ٦٠٨/٥-٦٠٩

خامسا: أسباب فشل حركة التوابين

١. نلاحظ بعد هذا العرض قلة عددهم إذا ما قورن بخصومهم (٤٠٠٠ في مقابل ٣٠،٠٠٠)، ولكن قد يثور في الذهن أن قلة العدد ليست سبباً أساسياً في الفشل ووقوع الهزيمة! ودليل ذلك قول الله تعالي: (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله).. وردّنا على ذلك أن الآية القرآنية تتكلم عن فئة استحقت عناية الله ومعيته ونصرته.. هذه الفئة قد أخذت بالأسباب التي شرعها الله في مثل هذه المواطن من الصراع. فالفئة القليلة قد أعدت واستعدت واتخذت كافة التدابير الاحترازية بقدر المستطاع وأفرغت وسعها في إعداد العدة للمعركة. ومن ثم استحقت النصر الموعود والتي بشرها الله بها في القرآن كما حدث للصحابة في غزوة بدر وغيرها رضي الله عنهم. وعلى مدار التاريخ الإسلامي نجد أن هذه القلة التي أخذت بهذه الأسباب الكونية التي خلقها الله للمسلم والكفار. فلما استمسكت الفئة القليلة المؤمنة بهذه الأسباب عوض الله قلتها بأن أيدها بجنده وقذف الرعب في قلوب أعدائها. أما جماعة التوابين رغم شهادة السلف لهم بالتقوى والصلاح والزهد في الدنيا والجهاد في سبيل الله إلا أنهم لم يأخذوا بالأسباب الموجبة للنصر كما هو واضح من نصائح الولاة والمخلصين لهم في عدم الخروج إلا بعد إعداد العدة.

٢. قدوم المختار الثقفي وظهوره على الخريطة السياسية في الكوفة كان له أثر كبير في انصراف الناس؛ بل وانشقاق التوابين عن أميرهم

سليمان بن صرد. فقد كان يزعم أنه مفوض من قبل ابن الحنفية رحمه الله للثأر بدم الحسين وأنه وليه، مما ثبط الناس وأقعدهم عن الخروج مع جيش التوابين.

٣. خذلان معظم أعضاء الجماعة لقادتهم وانصرافهم عنهم فلم يحضر إلا ٤ آلاف من ١٦ ألف رجل، وظلوا ينقصون حتى قبيل معركة عين الوردة.

٤. عدم أخذهم بنصيحة والي الكوفة؛ عبدالله بن يزيد الأنصاري، وكذا عدم سماع نصح والي الخراج على الكوفة؛ إبراهيم بن محمد اللذين طلبا منهم أن يظلوا معهم في الكوفة حتى يتهيأوا ويعدوا العدة ليقاتلواعدوهم جميعاً، أو حتى مناصرتهم في قتالهم لعدوهم، لأنهم في هذه الحالة سيقاتلون وهم في حماية ذويهم وأهليهم و إخوانهم.

٥. عدم أخذهم بنصيحة والي قرقيسيا؛ زفر بن الحارث الذي عرض لهم أن يبقوا معه في حصنه ليقاتلوا عدوهم جميعاً، أو يظلوا مرابطين أمام الحصن هم وجنده ورغم ذلك أبى التوابون وأصرت قيادتهم على الخروج لقتال عدوهم كفاحاً.

٦. نلاحظ ضعفهم العسكري والتكتيكي: من خلال نصيحة زفر بن الحارث الذي أشار عليهم بتغيير موقع القتال ونصحهم بالإسراع إلى منطقة عين الوردة. كما أن خطته في طريقة القتال وتعبئة الجنود يدل على مهارته وحنكته، وفي الوقت نفسه يدل على بساطة التوابين رغم شجاعتهم الفردية إلا أن المعارك تكون جماعية وتعتمد على الخداع والكر والفر والمناورة.

ونود في هذا السياق أن نرد على مقولة الدكتور شحاتة الناطور الذي قال:

«لم يمد ابن الزبير بالمال أو السلاح أو الجند (..) وعلى كل حال أبلى التوابون في عين الوردة وقتلوا من جيش الأمويين عدداً كبيراً، ولكن موقف ابن الزبير وواليه كان سلبياً وهنا قد أضر بمكانته في العراق»[١].

وردنا على الدكتور الناطور يتلخص في الآتي:

ماذا عسى ابن الزبير أن يفعل أكثر مما ذكره الإخباريون والرواة؛ فواليه على الكوفة قد بذل لهم النصيحة وأعانهم بالسلاح والعتاد، ولم يقصر في النصح لهم والإشفاق عليهم، وأرسل لهم رسالة يطلبهم بالرجوع إلى الكوفة والتحصن بها لقتال عدوهم ولعلمه بضعفهم. ووالي ابن الزبير على الخراج ابراهيم بن محمد بذل لهم مثل والي الكوفة عبدالله بن يزيد. أما والي قرقيسيا من قبل ابن الزبير زفر بن الحارث فهو الذي زودهم بالطعام وبالخيل وبالسلاح وطلب منهم التحصن معه في حصنه والانتظار حتى يقاتلوا عدوهم جميعاً ودعاهم إلى وحدة الصف، فأبوا وأصروا ورغم ذلك لم يقصر في حقهم حتى في رسم الخطة العسكرية وبعد المعركة أيضاً؛ فهذا الوالي نفسه هو الذي كان يضمد الجرحى ويعينهم ويطعمهم وأوصلهم إلى الكوفة

[١] عبدالله بن الزبير والإنتفاضة الثورية في عهد بني أمية للدكتور شحاتة ناطور ص١٤٨.

وإلى بقية أمصارهم. وماذا عسى ابن الزبير أن يفعل وهو كان يحارب على عدة جبهات وفي وقت واحد. أليس من الأجدى والأنفع أن يتحدوا معه ويقاتلوا عدوهم جميعاً.؟!

نلاحظ أن الضعف الإداري لديهم والقيادي أيضاً بالمقارنة بقادة جيش الشام:

فالقائد العام عبيدالله بن زياد، وقائد الجيش الحصين بن نُمير، وقادة مشاهير أخر مثل شُرَحْبيل بن ذي الكَلاع، وأدهم بن مُحْرِز، وجَبَلَة بن عبدالله الخثعمي.

وقد كان هذا الضعف العسكري واضحاً حتى أثناء القتال: ففي معمعة المعركة يتجادل التوابون فعبد الله بن خازم يتجادل مع الأمير عبدالله بن وال في إمساك الراية، وكأنه استقلها حتى صاح في إخوانه: أطع أميرك يرحمك الله ليس هذا وقت الجدال. فأمسكها قلبلاً ثم أخذها عبدالله بن وال.

فقضية السمع والطاعة كانت مهزوزة إلى حد كبير وكأنهم خرجوا ليقاتلوا فرادى، وبالطبع هذا الجدل كان له أثر كبير في زعزعة معنويات جند التوابين. وللأسف الشديد نجد أن هذا الجدل و هذا الخلف تكرر في عدة مواطن من خلال دراستنا لهذه الحركة.. فمثلاً عندما أراد أميرهم رفاعة بن شداد أن ينحاز بالبقية الباقية من جيش التوابين، لم يعجب ذلك بعض الناس، فرفضوا وانغمسوا في عدوهم واعتبروا أن مايفعله أميرهم فراراً، رغم أن ما فعله رفاعة بن شداد يماثل ما فعله خالد بن الوليد رضي الله عنه في مؤتة

عندما انحاز جيش المسلمين لعدم التكافؤ بين الطرفين وليحافظ على البقية المقاتلة معه. وسنجد تصداق ذلك ما فعله عبداالله بن غزية الذي أصر على الإنغماس في عدوهم، ونفس الصورة مع عبدالله بن جزء، وعبده بن سفيان. لدرجة أن إخوانهم أشفقوا عليهم وكانوا يلحون عليهم ويرجونهم أن يبقوا معهم باعتبارهم من خيار الناس، ولكي لا يطمعوا فيهم عدوهم أكثر مما حدث.. فكان الرجل يقاتل وحده ويترك إخوانه!.

١. وجود كيان قائم في تلك الحقبة، وكان هذا الكيان بيعة الناس لعبدالله بن الزبير ﵁، ورغم ذلك لم يتحدوا معه ولم يستفيدوا من قتاله لجند الشام. مما أدى إلى الفشل الذي حلّ بهم.

٢. لم يأخذوا برأي قائد منهم وهو عبد الله بن سعد الذي صار أميرا فيما بعد حيث رأى أن يقتلوا من في أيديهم ممن اشترك في قتل الحسين ﵁، لكن رفض ابن صُرد وأصر على قتل الرأس المدبر رغم قلتهم وضعف حالهم كما بينا آنفاً.

سادسا: أقوال أهل العلم فيهم

الحافظ شمس الدين الذهبي:

يقول عنه في سير أعلام النبلاء: «سليمان بن صُرد الأمير أبو مطرِّف الخزاعي الكوفي الصحابي. له رواية يسيرة. وعن أُبي وجبير بن مُطعم (..) قال ابن عبد البر: كان ممن كاتب الحسين ليبايعه، فلما عجز عن نصره ندم وحارب. قلتُ: كان ديناً عابداً، خرج في جيش تابوا إلى الله من خذلانهم الحُسين الشهيد، وساروا للطلب بدمه، وسمُوًّا جيش التوابين. وكان هو الذي بارز يوم صفين حَوشباً ذا ظُليم، فقتله. حضَّ سليمان على الجهاد؛ وسار في ألوف لحرب عبيد الله بن زياد (..) والتقى الجمعان، وكان عبيد الله في جيش عظيم، فالتحم الفريقان ثلاثة أيام، وقتل خلق من الفريقين، واستحرّ القتل بالتوابين شيعة الحسين، وقتل أمراؤهم الأربعة؛ سليمان، والمسيَّب، وعبدالله بن سعد، وعبد الله بن وال، وذلك بعين الوردة التي تُدعى رأس العين سنة خمس وستين، وتحيّز بمن بقي منهم رفاعة بن شداد إلى الكوفة»[١].

---

[١] سير أعلام النبلاء ٣/٣٩٤ـ٣٩٥

العلامة ابن الأثير الجزري:

قال عنه في أسد الغابة: «سليمان بن صُرد (..) كان اسمه في الجاهلية يساراً فسماه رسول الله ﷺ سُليمان، يكنى أبا المُطَرِّف. وكان خيراً فاضلاً، له دينٌ وعبادة، سكن الكوفة أوّل ما نزل المسلمون، وكان له قدر وشرف في قومه، وشهد مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه مشاهده كلها، وهو الذي قتل حوْشَبًا ذا ظُلَيْم الأُلهاني بصفين مبارزةً، وكان فيمن كتب إلى الحسين بن علي رضي الله عنه بعد موت معاوية، يسأله القدوم إلى الكوفة، فلما قدمها ترك القتال معه، فلما قتل الحسين نَدم هو، والمسَيّب بن نَجَبَة الفزاري، وجميع مَنْ خذله، ولم يقاتل معه، وقالوا: ما لنا تَوبة إلا أن نطلب بدمه، فخرجوا من الكوفة مستهل ربيع الآخر من سنة خمس وستين، وولوا أمرهم سليمان بن صُرد، وسموه أمير التوابين، وساروا إلى عبيد الله بن زياد، وكان قد سار من الشام في جيش كبير يريد العراق، فالتقوا بعين الوردة، من أرض الجزيرة، وهي رأس عين، فقتل سليمان بن صُرَد والمسيب بن نجبة وكثير ممن معهما، وحمل رأس سليمان والمسيب إلى مروان بن الحكم بالشام، وكان عمر سليمان حين قتل ثلاثاً وتسعين سنة»[١].

[١] أسد الغابة ٢/٢٩٧-٢٩٨.

الحافظ ابن كثير:

يقول عنه في البداية والنهاية: «وكان جيش سليمان بن صُرَد وأصحابه يسمى بجيش التوابين رحمهم الله، وقد كان سليمان بن صرد الخزرجي صحابياً جليلاً نبيلاً عابداً زاهداً، روى عن النبي ﷺ أحاديث في الصحيحين وغيرهما، وشهد مع علي رضي الله عنه صفين، وكان أحد من كان يجتمع الشيعة في داره لبيعة الحسين رضي الله عنه[١].

الحافظ ابن حجر العسقلاني:

يقول عنه في الإصابة: ((سليمان بن صرد (..) وكان خيراً فاضلاً شهد صفين مع علي رضي الله عنه وقتل حوشباً مبارزة ثم كان ممن كاتب الحسين رضي الله عنه ثم تخلف عنه ثم قدم هو والمسيب بن نجبة في آخرين فخرجوا في الطلب بدمه وهم أربعة آلاف فالتقاهم عبيدالله بن زياد بعين الوردة بعسكر مروان فقتل سليمان ومن معه وذلك في خمس وستين في شهر ربيع الآخر وكان لسليمان يوم قتل ثلاث وتسعون سنة»[٢].

[١] البداية والنهاية ٢٥٥/٤

[٢] الإصابة في معرفة الصحابة لابن حجر ٧٦/٢.

الحافظ أبو عمر بن عبد البر:

قال عنه في الإستيعاب: «كان رضي الله عنه فاضلاً له دين وعبادة كان اسمه في الجاهلية يساراً فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم سليمان (..) وله سن عالية وشرف وقدر وكلمة في قومه، شهد مع علي رضي الله عنه صفين (..) وكان فيمن كتب إلى الحسين بن علي رضي الله عنه يسأله القدوم إلى الكوفة فلما قدمها ترك القتال معه، فلما قتل الحسين رضي الله عنه ندم هو والمسيب بن نجبة الفزاري وجميع من خزله إذ لم يقاتلوا معه ثم قالوا ما لنا من توبة مما فعلنا إلا أن نقتل أنفسنا في الطلب بدمه فخرجوا فعسكروا بالنخيلة (..) وولوا أمرهم سليمان بن صرد، وسموه أمير التوابين ثم ساروا إلى عبيد الله بن زياد (..) فاقتتلوا فقتل سليمان بن صرد والمسيب بن نجبة بموضع يقال له عين الوردة»[١].

---

[١] الإستيعاب في معرفة الأصحاب ٢/٦٣-٦٤.

صفوة القول

هكذا نكون قد ألقينا الضوء على جماعة التوابين؛ تلك الجماعة التي ظهرت في القرن الهجري الأول والخلافة الإسلامية قائمة، جماعة تخلفت عن نصرة ابن بنت رسول الله ﷺ وخذلت آل البيت ثم كانت كربلاء التي جرّت على الأمة بلاءً وويلات تعاني منها أمتنا إلى وقتنا الحاضر. طلب التوابون المغفرة من الله وحده وشعروا أنه لن يتحقق لهم ذلك إلا بتوبة صادقة بقتل قتلة الحسين أو قتل أنفسهم في طلب دم آل البيت رضي الله عنهم. لذلك لا عجب أن نرى اصرارهم على ملاقاة جيش ابن زياد رغم قلتهم. لا عجب أن نرى عزمهم على المضي لقتال جند الشام وعدم استجابتهم لنداءات ونصائح الولاة المخلصين لهم بالتريث لعلمهم بقوة جيش الشام واعداده وتنظيمه. غير أن القوم كان يحركهم شوق إلى لقاء ربهم لنوال المغفرة والغفران من الله سبحانه وتعالى.

من خلال هذا العرض رأينا كيف تعامل سلفنا الصالح معهم وكيف نظروا إليهم، فلم يلعنوهم، ولم يتهموهم بالتهور والجنون والإنتحار وتعريض المسلمين وأنفسهم للتهلكة والخطر، لم يعلقوا من عاش منهم على أعواد المشانق. لم يتهموا أميرهم بصلابة الرأي وعدم النظر في عواقب الأمور. لم يفعلوا كما نفعل نحن اليوم بأنفسنا رغم البون الشاسع بيننا و بينهم ورغم

عدم وجود هياكل أو حتى كيانات إسلامية نحتمي بها أو نلجأ إليها.

لم يفعل السلف كما نفعل نحن مع أي جماعة مجاهدة أياً كان اسمها! لقد رمتنا الدنيا بقوس واحدة فلا عبدالله بن الزبير رضي الله عنه في الحجاز، ولا ولاته في الكوفة أو قرقيسيا ولا الناس هم أنس اليوم! القلة التي ذكرها الحسن البصري رحمه الله يوم أن رأى الناس في زمانه مختلفين «يا أهل السنة ترحموا بأنفسكم إنكم اليوم قلة». لقد ترحم السلف على التوابين وذكروهم في أنصع صحائفهم، بل أشفق عليهم حتى الخصوم.

ومن ثم لم يبق لنا إلا أن نترحم عليهم جميعاً، وفي الختام ندعوا الغيورين على تاريخ أمتنا أن يعيدوا قراءة وكتابة تاريخ جماعة التوابين، وأن يعيدوا قراءتها بنظرة جديدة، وعدم الاكتفاء بالسرد التاريخي، كما نوجه دعوتنا إلى الحركات الإسلامية خاصة المجاهدة أن تستفيد من دراسة مثل هذه الحركات مع استخلاص العبر والعظات.

وبالله التوفيق

كتبه د.هاني السباعي

ذو الحجة ١٤١٨ هـ - إبريل ١٩٩٨ م



سيرة علمية دعوية مختصرة للدكتور هاني السباعي:

* حاصل على درجة دكتوراه في إثبات جريمة القتل العمد في الشريعة الإسلامية مقارنة بالقوانين الوضعية.

* حاصل على درجة ماجستير في القصاص في الشريعة الإسلامية مقارنة بالقوانين الوضعية.

* حاصل على إجازة في قراءة القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم من طريق الشاطبية بطرق ثلاث مسندة إلى رسول الله ﷺ.

* حاصل على إجازة في قراءة القرآن الكريم برواية البزي وقنبل عن ابن كثير المكي من طريق الشاطبية.

* له عدة مؤلفات وأبحاث ومقالات وخطب وحوارات باللغة العربية والإنجليزية.

*رئيس مجلس إدارة الجمعية الشرعية بالقناطرالخيرية من عام ١٩٨٧ إلى عام ١٩٩٠.

*كاتب متخصص في التاريخ الإسلامي والسيرة النبوية.

*اختير مستشاراً تاريخياً لمركزالدراسات الإسلامية بأستراليا.

*مدير مركز المقريزي للدراسات التاريخية بلندن.

*الأمين العام المساعد للتيار السني بمصر.

بعض مؤلفاته

(١) كتاب دور رفاعة الطهطاوي في تخريب الهوية الإسلامية . إصدارات مركز المقريزي بلندن عام ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

(٢) كتاب الصراع بين المؤسسات الدينية والأنظمة الحاكمة من إصدارات مركز المقريزي بلندن عام ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م

(٣) كتاب القصاص (دراسة مقارنة الشريعة الإسلامية بالقوانين الوضعية من إصادرارت مركز المقريزي بلندن ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

(٤) كتاب إثبات جريمة القتل العمد (دراسة مقارنة الشريعة الإسلامية بالقوانين الوضعية من إصدارت مركز المقريزي بلندن عام ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م.

(٥) كتاب مسائل في الإيمان باللغة الإنجليزية إصدارات عام١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.

(٦) كتاب العدو القريب باللغة الإنجليزية طبع حديثاً.

(٦) كتاب مصادر السيرة النبوية. طبع بمصر عقب ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١.

(٧) كتاب أي الفريقين أحق بالعقل يا بندكتوس. طبع بعدة لغات العربية والإنجليزية والفرنسية.

(٨) العلمانيون وثورة الزنج. مطبوع.

(٩) الإرهاب في المنظومة الغربية مطبوع.

(١٠) العدو القريب أس الداء.مطبوع باللغتين العربي والإنجليزية.

(١١) التاريخ الأسود لدويلا ت الطوائف قديما وحديثاً. مطبوع.

(١٢) هل يقال لمبتدع علامة. مطبوع.

(١٣) الموريسكيون الجدد مسلمو فرنسا. مطبوع.

(١٤) القدس لنا ونحن أولى بها. مطبوع.

(١٥) يزيد بن معاوية وحكام عصرنا.

(١٦) التجلية في الرد على التعرية.

(١٧) قصة الجهاد. مطبوع

(١٨) الحصاد المر لشيخ الأزهر طنطاوي. مطبوع.

(١٩) حكم التحاكم للقوانين الوضعية. مطبوع.

(٢٠) زنادقة الأدب والفكر قديما وحديثا. مطبوع.

(٢١) حسن حنفي أنموذج للزندقة. مطبوع.

(٢٢) هل كان لنصارى مصر دور في مقاومة المحتل قديما وحديثا. مطبوع

(٢٣) كارلوس .. مانديلا ..سلام وتحية. مطبوع.

(٢٤) رسالة لعبد المأمور. مطبوع.

(٢٥) تسريح الجيوش العربية ضرورة شرعية. مطبوع.

(٢٦) ثورة الشعوب العربية رهان خاسر. مطبوع.

(٢٧) إذا نزلوا ساحة قتال أفسدوها. مطبوع.

(٢٨) القومية وأثرها على وحدة الأمة الإسلامية. مطبوع.

(٢٩) المصير المخيف قرابين على عتبات الناتو بليبيا. مطبوع.

(٣٠) سقوط الحضارة الغربية في جوانتنامو. مطبوع.

(٣١) مملكة القش. مطبوع

(٣٢) فتوى توحيد الأذان من كيتشنر الإنجليزي إلى وولش الأمريكي.

مطبوع.

(٣٣) التعليق على البديل الثالث لآل الزمر. مطبوع

(٣٤) رسالة هادئة لقادة الإخوان أي الفريقين أحق بالاتباع. مطبوع.

(٣٥) حكم المماثلة في العقوبة بحث شرعي مبسط. مطبوع.

(٣٦) حكم إمامة المرأة للرجال في الصلاة. مطبوع.

(٣٧) حكم قضاء القاضي بعلمه. بحث شرعي مبسط مطبوع.

(٣٨) حكم ضرب المتهم وخداعه بحث شرعي مبسط. مطبوع.

(٣٩) تعليق أولي على وثيقة ترشيد الجهاد. مطبوع.

(٤٠) فرسان بالليل دعار بالنهار! مطبوع.

(٤١) فلا رجعت ولارجع الحمار حسن نصر اللات سيد الأمة!. مطبوع.

(٤٢) لماذا التيار السني. مطبوع.

(٤٣) إعادة النظر في كتابة التاريخ الإسلامي. مطبوع.

(٤٤) دورة شرعية في مسائل الإيمان والفرق ١١ شريط.

(٤٥) دورة شرعية في مصادر السيرة النبوية ١٣ شريط.

(٤٥) دورة شرعية في الولاء والبراء ١٠ شرائط.

(٤٦) دورة في القضاء الشرعي ١٧ شريطا.

(٤٧) دورة في القضاء الجنائي الإسلامي ٨ شرائط.

(٤٨) تفريغ دورة القضاء الجنائي الإسلامي الصوتية في كتاب مطبوع من إصدارات مؤسسة تحايا الإعلامية.

(٤٩) تفريغ دورة مسائل الإيمان كاملة في كتاب مطبوع من إصدارات

مؤسسة تحايا الإعلامية.

(٥٠) تفريغ دورة الولاء والبراء كاملة في كتاب مطبوع مؤسسة التحابا.

(٥١) كتاب زنادقة الأدب والفكر. مطبوع.

(٥٢) كتاب ثورة التوابين مطبوع.

(٥٣) الخليفة المفترى عليه عبد الله بن الزبير.تحت الطبع

(٥٤) حكم قتل المسلم بالكافر. بحث شرعي مبسط. مطبوع.

(٥٥) حكم ضرب المسلم وخداعه. بحث شرعي مطبوع.

(٥٦) كتاب العثمانيون وإبادة الأرمن. طبع بعدة لغات. مطبوعات الكتاب العالمي باستنبول.

(٥٧) أكثر من ٩٦٦ خطبة جمعة صوتية ومرئية.

(٥٨) كتاب الأكذوبة الكبرى إبادة العثمانيين للأرمن. مطبوع بعدة لغات العربية والإنجليزية الفرنسية.

(٥٩) شرح كتاب الطرق الحكمية للعلامة ابن القيمة سلسلة دروس صوتية.

(٦٠) عشرات الحوارات المقروءة والمسموعة والمرئية في العديد من وسائل الإعلام المحلية والعالمية مثل الجزيرة والعربية وبي بي سي والعالم وروسيا اليوم وآي إن بي وغيرها من محطات وحوارات مكتوبة في صحف ومجلات عالمية عديدة.

(٦١) حوار منتدى الحسبة أسئلة وأجوبة في أربع مجموعات في قضايا شرعية مختلفة. مطبوع.

(٦٢) سلسلة مقالات هذا جدك يا ولدي من ١٩٩٤ إلى ١٩٩٨:

الناصر صلاح الدين الأيوبي. سيف الدين قطز. الظاهر بيبرس. صقر قريش. موسى بن نصير. طارق بن زياد. عبد الرحمن الناصر بالأندلس. عبد الله بن ياسين شيخ المرابطين. يوسف بن تاشفين. سيعاد طبعها قريبا إن شاء الله.

إصدارات مركز المقريزي للدراسات التاريخية ـ لندن

الطبعة الأولى



ذو الحجة ١١٨ هـ ـ إبريل ١٩٩٨ م

الفهرس